الوحدة الخامسة

الهوية والدين

الإنسان هو المخلوق الذي حباه الله - عز وجل - من بداية التكوين بعناصر تمكّنه من إدارة الكون ، وملّكه الله - سبحانه وتعالى - مفاتيح مدنية اجتماعية تضمن تهذيبه ؛ لضمانة عدم الفساد والإفساد (كتاب الإنسان: العقاد) وسفك الدماء { وعلم آدم الأسماء كلها } [البقرة : 31] (تفسير ابن عاشور) (2: 281) كما هو متصوّر مما عُرف في جبلة الإنسان أيضاً من غرائز تُحركها أنانية التملك والسيطرة الموجودة في تكوينه أيضاً.

(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفةً قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) [البقرة : 30] (تفسير ابن عاشور 2:281) . (فكر حركة الاستنارة وتناقضاته: د. عبد الوهاب المسيري)

وكل هذا الفساد والإفساد في عالمنا وجب أن نتقيه وتعدّل مساره حركة إنسانية تُصلح ما أفسد وترد لنصاب الخير ما نُزِع منه. وفي الإسلام هذه هي دائرة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" المحكومة بالنص حتى في أدنى تفاصيلها ونعني به الكلمة الطيبة والمجادلة بالتي هي أحسن: { وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [125/16] وقد خُلِق الإنسان مدنياً بطبعه . ومنه جعل الله الزوجين : الذكر والأنثى وخلقهما من نفس واحدة على هيئة فسيولوجية تناسب أدوارهما الاجتماعية. وجعل منهما رجالا كثيراً ونساءً وشعوباً وقبائل لتتعارف فيما بينها وتخضع لمعيار تفاضلي واحد " إن أكرمكم عند الله أتقاكم". وهذا لا ينفى نظرية التسخير (العدل الإلهي مسألة الشرور: مرتضى مطهري). حيث جعل كل إنسان خادماً لغيره بأجر مادي ينظمه الاجتماع الإنساني" (ابن عاشور: الاجتماع الإسلامي) أو بأجر معنوي مقبول "الأمومة مثلاً" بما تحقّقه المرأة من غريزتها الطبيعية التي تعلم أن الدين يباركها وهي طريقها إلى الجنة. (الحرية أو الطوفان: حاكم المطيري)

كما أن العلاقة بالآخر الجنسي أو العرقي أو الديني محكومة بقواعد شرعية ثابتة في القرآن والسنة الصحيحة التي دعت إلى حفظ المقاصد الأساسية في الشريعة في إدارة منظومة العلاقات مع النفس ومع الله ومع الكون والآخر ؛ فهي تستند إلى: العدالة والكرامة الإنسانية. ثم إلى حفظ المقاصد الخمسة في إدارة شؤون الأفراد: " حفظ

النفس، العقل، الدين، النسل، المال" التي لخصها الإمام الشاطبي وما زالت القامات
الفقهية تراجع النصوص لتستنتج مقاصد ضابطة لسلوك الفرد والجماعة لتحقيق حياة
فضلى ترتقي إلى مقصد الدين الأساسي في "إخراج الناس من الظلمات إلى النور
وتحقيق الاستخلاف الراشد لهذا الكون وساكنيه" مما يجعله بعيداً عن آفة الاستبداد
والدمار التي نبّه إلى احتمال تحققها الكارثي حوارية الملائكة في بداية الخلق
والتكوين والتي تُشكك بمدى جاهزية الإنسان لتجاوز نقائصه لتحقيق هذا
التكليف. (مقاصد الشريعة – عبد الجبار الرفاعي) (مقاصد الشريعة أساس لحقوق
الإنسان: د. محمد الزحيلي)

ويتصوّر في التربية المدنية أن يكون النص الديني هو المحرك المؤلّف للقلوب إذا
التزمنا بتأويلات تنسجم مع مقاصد الشريعة نفسها ، وتتجاوز تناقضاتها التي يتم
استهلاكها لدعم مطامع أفراد ومؤسسات لا تحتفل بحرمة دم الإنسان ولا احترام
كينونته وكرامته ، وتنتهك كل حق له في الوجود بزعمها الانتماء إلى هذا الدين
نفسه.

كان ينبغي على المجتمعات الإنسانية والعربية المسلمة خاصة أن تقدم إنساناً يأخذ بيد
الإنسانية إلى إعمار الأرض وإدارة الكون بعدالة اجتماعية كاملة بوصفه قواماً قائماً
عليها ، لكنّ الذي حدث أنّ عجلة التاريخ تبدل فيها حال المسلمين اقتراباً من
النصوص الشافية التي تجمع الناس ولا تفرقهم ، وصار الفرد في العالم الإسلامي
بحاجة كغيره إلى تمثّل شروط العودة للنهضة بالذات الإنسانية لتكون خادمة لحفظ
إنسانيته لا لتجاوزها وتشويؤها في عصر العولمة

(www.booksstream.com/book/2498/ شروط-النهضة.html. مالك ابن
نبي)

إنّ التربية الوجدانية مع التربية المعرفية للإنسان هي التي ستوجّد تربية مدنية للفرد
تخدم الإنسانية ، ولا تقف عند الحدود الجغرافية والعرقية أو الطائفية للإنسان بل
تعتمد مبدأ التسامح الذي بدأت فيه العصور الإسلامية الأولى التي نظرت إلى الفرد
بعمله ومواطنته في الدولة وتركت الحكم على أفعاله القلبية لله وحده (انظر في كتابي
الدكتور عبد الحميد أبو سليمان: أزمة العقل المسلم، وأزمة الإرادة والوجدان).